الاتجاه التواصلي

يورغن هابرماس فيلسوف ألماني من رواد الفلسفة وعلم الاجتماع، ويمثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية. ويتجلى هذا النقد بصورة واضحة في (جدل التنوير) لهوركهامر وادورنو الذى عبرا فيه عن الانتكاسة التي اصابت التنوير والنكوص الذى اصاب العقل عندما تم توظيفه كأداة لخدمة الانتاج الصناعي في المجتمعات الرأسمالية ، وما ترتب على ذلك من اغتراب الذات عن الموضوع وتحول عقل التنوير الى ما اطلق عليه اسم (العقل الأداتى) . تتنوع كتاباته بين الفلسفة والسوسيولوجيا والاخلاق، بالإضافة إلى مئات الأبحاث والمقالات. من بين الكتب والدراسات المعروفة، نجد على سبيل المثال لا الحصر: "ملامح فلسفية وسياسية، الخطاب الفلسفي للحداثة، أخلاقيات المناقشة، الحق والديمقراطية، الاندماج الجمهوري، الأخلاق والتواصل ونظرية الفعل التواصلي." ويعد كتاب نظرية الفعل التواصلي أهم كتاب في مشروعه الفلسفي؛ فهو كتاب يتوج مجهودات هابرماس في فترة الستينيات والسبعينيات، ويجمع مرجعيات فلسفية وسوسيولوجية وعلمية ولغوية مختلفة. وقد اشتهر هابرماس بنظرية(نظرية الفعل التواصلي) هدف من هذه الفلسفة الانتقال بالعقلانية من كونها ممارسة الذات إلى ممارسة المجتمع، أي انتقالها من عقلانية الفرد إلى عقلانية المجتمع، وعقلانية المجتمع تتجلى في الحياة اليومية للناس عبر نشاط الفعل التواصلي .

العقلانية التواصلية:-

انطلق هابرمارس من مفهوم جديد للعقلانية ، فإذا كانت الحداثة الأوربية قد انتهت إلى ما يعرف بالعقل الأداتي ، فقد أدانته كل التيارات الفلسفية المضادة للحداثة وتعالت صيحات التخلي عن العقل وعن الفلسفة التي يعتبر العقل موضوعها الأساسي . ومن هنا جاءت دعوة هابرماس لتفعيل دور الفلسفة والتأكيد على أهمية العقل باعتباره المنطلق الأساسي لأى نظرية في المجتمع ولذلك أراد هابرماس تفجير الطاقة الإبداعية لعقل التنوير باعتبار أن الحداثة – فى رأيه – مشروع لم يكتمل بعد . وإذ كان التطور الحديث كشف عن سلبيات العقلانية الأداتية ، فإن هذا ليس مبررا كافيا للتخلي عن مشروع الحداثة بل لا بد أن تواصل المجتمعات الحديثة تطورها باستكمال هذا المفهوم الأداتي بإدخال البعد التواصلي في مفهوم العقلانية . اذ يحدد هابرماس مفهوم **العقلانية** بقوله : "إن ما نسميه (عقلانية) هو أولاً الاستعداد الذى تبرهن عليه ذوات قادرة على الكلام والعمل وعلى اكتساب وتطبيق معرفة قابلة للخطأ" . ولكن ما هي العقلانية التواصلية التي حاول هابرماس أن يقدم من خلالها تفسيرا لبنية المجتمع المعاصر؟ يجيب على هذا السؤال

بتحديد أبعاد ثلاثة ينطوي عليها مفهوم العقلانية التواصلية : " **أولها** : علاقة الذات العارفة بعالم الأحداث والوقائع ، **ثانيها** : علاقتها بعالم اجتماعي يتميز بالفاعلية وبالانخراط الشخصي في التفاعل مع الآخرين ، **وأخيرا** علاقة شخص يعانى بذاتيته وذاتية الآخرين " . ويتضمن مفهوم العقلانية التواصلية كل ما يتعلق بالنشاط العقلي ، ولما كان هذا النشاط العقلي يدور حول المعرفة وتطبيقاتها؛ فقد قسمه هابرماس إلى نوعين :

١-نشاط عقلي معرفي- أداتي ، وهو النشاط الموجه إلى غاية، ويحقق النفع، وتسخر فيه المعرفة من أجل النجاح ، ويستخدم الإنسان هذا النوع من النشاط لمعرفة البيئة المحيطة به . ويحدد هابرماس العلاقة بين العقلانية والمعرفة بأنها "لا تهتم كثيرا بأمتلاك المعرفة بقدر ما تهتم بالطريقة التى تستخدم بها الذوات القادرة على الكلام والفعل هذه المعرفة وكيف تعمل على تطبيقها ".

٢-نشاط عقلي وتواصلي وتمارسه ذوات قادرة على الكلام والفعل وغاية النشاط التواصلي هو التوجه نحو التفاهم بين الذوات، وهو نوع من المعرفة التعبيرية اللغوية .

وقد بدأت بوادر هذه النظرية في كتابه "المعرفة والمصلحة" قبل أن يتوجها في كتاب ضخم من جزئين . ففي هذا المؤلف (أي المعرفة والمصلحة) صنف هابرماس المعرفة العلمية فى ثلاثة أنواع مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمصالح البشرية، أي أنها ليست معرفة منزهة عن الغرض، كما أنها تربط الإنسان ببيئته الطبيعية من ناحية وبالطبيعة الاجتماعية من ناحية أخرى ، وأول هذه الأنواع هى المعرفة التجريبية والمصلحة المرتبطة بهذا النوع هي المصلحة التقنية . وعلى الرغم من عدم رفض هابرماس لهذا النوع الأول من المعرفة، إلا أنه يؤكد أن العمل وحده ليس كافيا لتمكين الإنسان من تحويل بيئته ، بل إن القدرة على استخدام اللغة والرموز والعلامات من أجل تحقيق التواصل بين البشر لا تقل أهمية عن العمل . فإذا كانت القدرة على هذا الأخير قد أفضت إلى ظهور "المصلحة التقنية " فإن القدرة على التواصل تفضى إلى ظهور " المصلحة العملية " المتمثلة في العلوم التاريخية – التأويلية، هي معرفة تتجه إلى تحليل النصوص وتأويلها وتحددها مصلحة عملية تهدف إلى حفظ وتوسيع مجال الفهم الممكن بين الكائنات البشرية وتحسين عملية الاتصال . **والتواصل** "هو العلاقات التي تحصل بين الناس والرابط بينهم هو اللغة باعتبارها أداة أساسية وفعالة في تحقيقها؛ وهي تختلف باختلاف السياقات التداولية والمعرفية والتركيبية والصوتية" .

شروط تحقق التجربة التواصلية :

لا يريد هابرماس للنشاط التواصلي أن يتخبط في العشوائية ، وحتى لا يصبح تواصلا مشوها لابد

أن تحكمه شروط يجب أن تتوافر في المشاركين في التفاعل . فالنشاط التواصلي لا يكون مجرد فعل تقوم به ذات منعزلة، ولكنه حوار يتم بين مختلف الذوات الفاعلة أو بين ذاتين فاعلتين على الأقل . وهو حوار تحكمه شروط أهمها :

١- يتم النشاط التواصلي من خلال علاقة تفاعل بين فردين أو أكثر داخل سياق العالم المعيش، فمن حق كل شخص له القدرة على الكلام والفعل أن يشارك فى التجربة التواصلية .

٢- أن تتم عملية التواصل من خلال اللغة باعتبارها الوسيط الأساسي في النشاط التواصلي وعن طريقها يتم الوصول إلى نوع من التفاهم بتوظيف الجمل والعبارات أو التعبيرات التي يتلفظ بها أعضاء الجماعة المشاركة في التواصل سواء كانوا متحدثين أو مستمعين .

٣- أن تهدف التجربة التواصلية للوصول إلى اتفاق بين الذوات المشاركة في التفاعل ، ويفترض هذا الاتفاق وجود معرفة مشتركة بينهم، وأن يتم الاعتراف المتبادل على مزاعم الصدق من أجل الوصول إلى إجماع .

٤- إذا تشكك أحد المشاركين في التواصل في الدقة المعيارية لتعبير ما، أو إذا تعرض أحد مزاعم الصدق للشك ، أو لم يستطع المشاركون في التواصل تبريره أو الدفاع عنه بالحجج العقلية ، فإن مزاعم الصدق نفسها تصبح موضوع سؤال ، وربما يختل التواصل أو يتوقف، وفى هذه الحالة لابد للمشاركين في التواصل من إعادة فحص تلك المزاعم من جديد ومراجعتها مراجعة نقدية لتصحيح أخطائها ، ومعنى هذا أن العملية التواصلية تخضع لما يسمى بديمقراطية الحوار

٥- أن يتحرر الحوار من كل أشكال الضغط والقهر، فيكون حوارا حرا بين ذوات حرة ومتكافئة في المكانة والمستوى لضمان موقف مثالي للحديث .

٦- أن يتاح لكل مشارك في الحوار فرصة مساوية لسائر المشاركين ، وأن يتمتع كل منهم بحق التأكيد أو الدفاع أو التساؤل حول ما يراه من قبول أو رفض لمزاعم الصدق وفق المعايير المعترف بها ، مع الاعتراف بإمكانيه الوقوع فى الخطأ ، وإمكانية تصحيحه أيضا فلا شئ يعلو على النقد ، ولا تمارس أي سلطة على الحوار سوى سلطة العقل .

غير أن الجديد في فلسفة هابرماس في التواصل في اعتماده قاعدتين أساسيتين في الكلام هي قاعدة حرف (U) وتسمى بالقاعدة الكونية لأنه يريد دوما خلق لغة تواصلية شمولية، والقاعدة الثانية هي قاعدة الحرف (D) أو الديمقراطية وتفهم من لغتها أي أنها تؤكد على أن أفراد المجتمع شركاء متفقون على لغة تواصلية معينة تؤكد على كلية وشمولية اللغة وديمقراطيتها وتشاور الناطقين بها .

نظرية الفعل التواصلي

يدين هابرماس في نظريته عن الفعل التواصلي إلى فلسفة اللغة كما صرح بذلك فى إحدى مقابلاته : " أنا مدين لكل من النزعات التحليلية والتداولية للنظرية اللغوية .. إن غاية الفهم المتبادل مغروسة في الاتصال اللغوي " . لذ استمد بعض عناصرها من نظرية أفعال الكلام بوجه خاص ، ومن علم اللغة الاجتماعي " إن مفهوم الفعل التواصلي يفترض اللغة بوصفها الوسط الذى يمكن أن يتحقق فيه نوع من التفاهم ، ومن خلاله يستطيع المشاركون فى التفاعل أن يثيروا مزاعم الصدق التي يمكن الاتفاق عليها أو الاختلاف حولها وقد كان أحد الأسباب التي دفعت هابرماس إلى هذا التحول نحو اللغة هو "الرفض المنتشر على نطاق واسع لما يسمى بالحجج التأسيسية في كل أشكالها ومظاهرها" . وقد كان من أسباب هذا التحول أيضاً اقتناع هابرماس المتزايد بأن التفكير التنويري (أو مشروع الحداثة) قد قام بالتحديد بمثل هذا النقد وذلك بتركيزه الشديد على النموذج المعرفي المتمركز حول الذات . لهذا كان هدفه هو إعادة صياغة هذا المشروع التنويري أو الحداثي من خلال ما سماه بالبراجماطيقا (أو التداول اللغوي)، ويميز بين أربعة نماذج للفعل استقاها من نظريات العلوم الاجتماعية:

١ – النموذج الغائي للفعل ، ويطلق عليه اسم النموذج الاستراتيجي ، وغالبا ما يفسر تفسيرا نفعيا ، فالفعل يفترض أنه يختار ويحسب الوسائل والغايات من وجهة نظر تحقيق أكبر قدر من المنفعة .

٢ –مفهوم نموذج الفعل الذى توجهه وتنظمه المعايير ، وهذا النموذج لا يشير إلى سلوك أفراد منعزلين يلتقون مصادفة بأفراد آخرين فى محيطهم ، وإنها يشير إلى سلوك أعضاء فى جماعة اجتماعية يوجهون أفعالهم نحو قيم مشتركة .

٣ – مفهوم الفعل الدرامي لا يحيل فى المقام الأول إلى فاعل منفرد أو عضو فى جماعة اجتماعية وإنما يحيل إلى المساهمين في فعل مشترك بحيث يكونون جمهورا يعرضون أنفسهم أمامه . والفاعل هنا يثير في جمهوره صورة معينة أو إحساسا معينا عنه هو نفسه.

٤ – مفهوم الفعل التواصلي الذى يحيل إلى الفعل المشترك لذاتين على الأقل قادرين على الكلام والفعل وإقامة علاقات شخصية مشتركة (سواء أكانت علاقات لغوية أو غير لغوية) إن الفاعلين هنا يسعون إلى تفهم موقف الفعل، وفهم خططهما للفعل ، وذلك لكى ينسقا أفعالهما بالتراضي أو الاتفاق بينهما . والمفهوم الأساسي عن التفسير يشير في المقام الأول إلى السعي إلى تعريفات أو تحديدات للموقف بحيث يمكن التوصل فيه إلى إجماع ، واللغة لها مكان متميز فى هذا النموذج، وحجة هابرماس في هذا هو أن قدرتنا على التواصل ذات بنية وقواعد أساسية

لا توجد إلا فى اللغة التي تتعلمها وتتحدث بها كل الذوات . فالتجربة التواصلية ليست هي القدرة على إنتاج جمل لها قواعد ، وليست اللغة مجرد نسق من الرموز له تركيبه النحوي ومعجمه وصوتياته .. أو له خصائصه الدلالية فقط ، بل يهتم هابرماس باللغة من منظور خصائصها التداولية ، فاللغة تشكل عنده نسقا من القواعد تساعد على توليد تعبيرات لدرجة أن كل تعبير مصاغ بشكل صحيح يعتبر عنصرا من عناصر هذه اللغة . ومن ثم فإن الذوات القادرة على استعمال هذه التعبيرات تشارك فى عمليات التواصل لأنها تستطيع التعبير وفهم الجمل والجواب عليها" تتشكل اللغة إذن من خلال التفاعل بين الذوات ، والحديث بين المشاركين فى التفاعل يربطهم بالعالم المعيش حولهم ، وبالذوات الأخرى ، ويربطهم أيضا بمشاعرهم ورغباتهم ومقاصدهم

تقدم أفعال الكلام " بنية تلتقى فيها ثلاثة مكونات :-

١-مكون جملي مهمته تصور (أو ذكر) أحوال الشئ ،

٢-مكون فعل منطوق مهمته عقد علاقات بين الأشخاص،

٣-مكون لساني يعبر عن قصد المتكلم .

واستنادا إلى هذه الوظائف الثلاث للغة يمكن استخلاص ثلاثة جوانب مختلفة للمصداقية يتسنى وفقا لها رفض المستمع لعبارة المتكلم إذا رفض إما "حقيقة" ما أكد في العبارة (أو أيضا حقيقة الافتراضات الوجودية التي تشرف على مضمون العبارة)، "صحة" فعل اللسان نظرا للسياق المعياري للصياغة، وإما أخيرا "صدق" القصد الذى عبر عنه المتحدث (أي التطابق المفترض بين ما أراد قوله وبين ما قاله) .

ومفتاح فكرة هابرماس عن التواصل إلى التفاهم تنطوي على اتفاق يقاس بما سماه بمزاعم الصدق Validity Claims ، ففي الفعل التواصلي " تتوقف حصيلة التفاعل نفسه على إمكانية توصل المشاركين فيه إلى اتفاق فيما بينهم على تقييم مشترك لعلاقاتهم، وحسب هذا النموذج من الفعل فإن النجاح الوحيد الممكن لتفاعل ما يتمثل في توصل المشاركين إلى إجماع عام بنعم أو لا لمزاعم الصدق المرتكزة على أسس عقلية"

لكن ما المقاييس التي يجب على أطراف التواصل مراعاتها لتحقيق هذا الهدف؟ أنها (الحقيقة والدقة والصدق)، أي على المشاركين في التفاعل توخى حقيقة العبارة ودقتها وصدقها واستنادها إلى الحجج والبراهين العقلية . فإمكانية الوصول إلى التفاهم تكمن في "إمكان استخدام الأسباب أو الحجج التي تساعد على الحصول على اعتراف الذوات فيما بينها بمزاعم الصدق القابلة للنقد

تمتزج خيوط مختلفة – يكشف عنها التواصل اليومي – من عناصر المعرفة الأدائية والعناصر الأخلاقية العملية بالإضافة إلى العنصر اللغوي ، تمتزج جميعا في إعادة بناء العالم المعيش .

لم يتوقف هابرماس عند الإنتاج المادي للعالم الذى يتحقق عن طريق النشاط الأداتى ، لا لعدم أهميته ، بل لأنه الجانب الوحيد الذى أثمرته الحداثة الغربية . ولذلك أسهب في تفاصيل ما اعتبره الجانب المهمل في المشروع الحداثي ، وهو النشاط التواصلي وما يفترضه من معايير وقيم أخلاقية . ويؤكد على ممارسة الفعل التواصلي فى الحياة اليومية التى هي الوسط الذى يتم فيه إعادة الإنتاج الرمزي . إن المشاركين فى التواصل يوجدون فى تراث ثقافي يستخدمونه وفى نفس الوقت يجددونه ، ولكن ينسقوا أفعالهم عن طريق اعتراف الذوات فيما بينهم بصحة مزاعم الصدق

فالعناصر البنائية المكونة للعالم المعيش (الثقافة والمجتمع والشخصية) تتطابق معها عمليات إعادة الإنتاج (إعادة إنتاج ثقافي – تكامل اجتماعي – انتماء للجماعة) وكلها ترتكز على الوجوه المختلفة للفعل التواصلي (التفاهم – التنسيق – الفعل الاجتماعي) وكلها ممتدة الجذور في العناصر البنائية المكونة لأفعال الكلام (القضايا التقريرية – أفعال القول – الأقوال التعبيرية). هذه التطابقات البنائية تتيح للفعل التواصلي أن يؤدى وظائفه وأن يصبح وسيطا دائما لإعادة الإنتاج الرمزي للعالم المعيش، فإذا حيل بين هذه الوظائف وبين التحقيق ظهرت الاضطرابات في عملية إعادة الإنتاج كما نشأت كذلك مظاهر الأزمة مثل فقدان المعنى، وسقوط القيم .